صور

من حياة البائسين - ١

. . وانحدرت الدموع على خدها الذابل ، وتثاقلت من عيون طالما صرعت بواسل فأصبحت منكسرة ، ولكن فى حزن وكآبة ، وذلة ومهانة ، ومد البؤس يده السوداء إلى ملامحها الجميلة فمحاها ، واقتنى ، فى قناء قدها المياس ثم حناها ، وانطفأ نور شبابها وخبا شذاها . .

وخرجت بنفس واهية ، وقلب كئيب محزون ، محطم الأمانى مذبوح ، يضطرب فى صدر ضاق عليه بعد أن كان به فرحا طروبا ، يريد الفرار من مقام طالما رقص فيه وغرد ولم يعلم أنه سيكون رمسه ولابد أن يلقى به حتفه . .

بتلك الحالة الأليمة الموجعة طردها زوجها القاسى وطفلها يبكى على ذراعها المرتعش ، فتضمه إلى صدرها النحيل ، ويلف رطب ذراعيه حول جيدها المائل وينظر إلى أبيه نظرة المستعطف ، فلا يحن ولا يعطف : يسترحمه بلحن الطفولة البريئة ، بلحن حزين . . يا يا . . يا . . فلا يرق ولا يرحم .

قلب مات وتحجر فلم يلن حتى لمن شغف بحبها وهو عزيز ؛ ولم يقبل لها شفاعة حتى من كبده وثمرة حبه وأصبح الآن يطرحها فى أحضان البؤس ، وهى ترضى أن تكون معه فيه ، ورماها بعد أن التذ بنضارتها ، وملّ من جمالها سنين .

لم تدر ... ما الجانى ؟ أجنى عليها زوجها بانغماسه فى بؤر الفساد والفجور ، وإدمانه أنواع المخدرات فنسى نفسه وأصبح كرة تتقاذفها أيدى الدائنين وساءت سمعته حتى فصل من عمله وصار عبئا ثقيلا لا تحتمله الأرض وتأبى أن تحمله فى جوفها ... أم جنى عليها جمالها الفاتن ... آه ... جمالها عيون ناعسة ، فاتنة فى هدوء ، ساحرة فى سكون ، ولحاظ ... جارحة وفيها دواء ... وجفون آمرة بأهدابها السود وفيها انطلاق ، ... عيون ... قاسية شفيقة .. فاتنة رحيمة ... صامتة بليغة ... هادئة ثائرة ... عيون ... جائرة وفيها إنصاف ، غازية ولكن فى عفاف ... وثغر بسام ، هو كوثر الحياة ، ينبثق عن أسنان يغار منها اللؤلؤ ، وشفاه يذوب منها العقيق ، ولسان ينظم نغمات صوتها العذب الرقيق ... وشعر ... وجيد .. وقد .. وروح ... ونفس ... وقلب ... سحق البؤس كل هذا ، ولم يبق منه إلا ما يبعث فى القلوب الرحيمه أسى وأسي .

ياجمال ... هل أنت السبب فى شقائها ... ؟ ... إيه ... ليتك لم تكن !! انت حياة .. والحياة لاتكون فى البؤس ، والبؤس لايكون فى الحياة ... فلم كنت هذه المسكينة ؟ آه .. ليتك لم تكن !!! فتنت بها ذلك الشاب ، وأوقعته فى حبائلك فتخلفت بها وأنت شهيد، وأخذتها من بين أسرة فقيرة جدا ، ولو تركت فى فقرها لما ذاقت مرارته بعد ماعرفت لذة الحياة ورغد العيش ، ولكن ماالحيلة لها فى بطون الليالى السود لابد أن تتجرع كؤوسه ، وتلبس أثواب نحوسه ... فليتك لم تكن لها ياجمال .. .

ومشت منهدمة القوام ، تخطو خطوات الخائف الحائر ، المضطرب الحائر ، يكاد الثرى تحت قدميها يهمس بالأنين ، ويأسرها الكدر ومشى خلفها البؤس وقادها النحس إلى مكان خلوى فسيح ، فجلست تداعب طفلها ، وتعزى به قلبها الجريح ... ... سكنت الطبيعة حولها ونبت الغربان فوق رأسها ونام طفلها وهو عبوس ، وسبحت فى خيالها تسترجع صور أيامها الماضية ، فتبسم لخلوها ، وتعبس لمرها ، تفتح ذراعيها ضاحكة تريد ضم زوجها وهى عروس ، ومرعان ما يطوف ببالها الأسد المفترس فتتراجع مذعورة وتتذكر أنها فى هذا المكان وعلى تلك الحال، فتبكى ما شاءت ..... ثم يراودها الخيال فتعود ..... أمي .. شبابى !!! جمال !! زوجى !!! طفلى ... سعادتى .... شقائى .. آه !! آه ..... وبينما الأحلام تلعب بعقلها الوسنان ، وتفتك بقلبها فى مفاوز الأوهام ،سمعت رنين صوت خفيف مفوه الرحمة والحنان : علام تبكين يا سيدتى ... ؟ رفعت رأسها وفتحت عينيها الدامعتين ، وإذا رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ... غض بصره وابتعد عنها قليلا حتى تأنس إليه ولا تخاف ... فتشجعت وتغلبت على الحياء ، وشرحت له حالها ، وما آل إليه أمرها ، وأخبرته أنها من ..... ولم تملك أجر القطار ... ؛ فطلب منها أن تتبعه ، فمشت وراءه على استحياء ، وما زالا حتى وصلا إلى داره ..... أكرمتها زوجه وضحك الطفل ولعب، وأمه تحبس عن عينيها البكاء لأنها عرفت نبأ الدهر وما يخبئه لها ولطفلها المسكين .

ثم أخذها الرجل الكريم وأعطاها قليلا من النقود وأنزلها القطار ورجع بقلب باك حزين ..... وهناك عند ربوة عالية فى ..... وفى زقاق ضيق دخلت على أمها العجوز، وأخيها الفقير فى حجرة ضيقة مظلمة لم يزرها إلا خيوط دقيقة من الشمس وقت الضحى ، فلم يعرفاها لتبدل حالها ، وضياع جمالها ، وكانت هذه أول مرة رأياها فيها بعد زواجها ،وبعد أن ظنا ألا تلاقى ..... ولأنها أصبحت فى صف الأغنياء بزوجها .... وبعد ما انزوت فى قلب أمها التى لا تعنى إلا بجمع الفضلات من موائد الأغنياء لتسد رمقها ، وتجد فى تحصيل قوت ابنها الفقير ـ والفقر ينسى الحبيب ويحول بين الصاحب والقريب ـ ولما عرفاها بكوا جميعا حتى ملهم البكاء ، وعاشوا بعد ذلك عيشة المعدمين ، وأخذ البؤس واليأس يتناوبان

قلوبهم وعقولهم ، وقضوا سنة كاملة ولا معين .... ووالله لقد كان إعراض الناس عنهم وقسوة الأغنياء عليهم أشد وأنكى من الفقر .... فأظلمت الدنيا فى وجوههم وطلبوا الموت والموت لا يجيب ....

سكن الليل وأغمض جفونه ، لابساً ثوب الحداد ، لم ينم ولكنه فى حزن عميق ، يحرق قلبه طفل مريض فى جوفه يصيح ، وأم بين أحشائه تنوح ، وعجوز تئن وبقسوة الدهر تبوح ، وضرير بائس يود الموت فيستريح ، فشاركهم الليل حتى فى ثيابهم السود وخيم عليهم بسكونه وهو رهيب . . . . . .

وصار الطفل يئن ويأخذ صوته فى انحدار عميق فيجاوبه صدى فى فؤاد أمه المكلوم فتتأوه بآهات ملؤها الحسرة وتحنو عليه وتقبله فتمتزج دموعها بدموعه ، وتضمه إلى صدرها الضعيف ، فيقفز قفزات ترتج لها أعصابها ، وأمها العجوز وأخوها الضرير يتوجان حولها .

وأخذ النور يتضاءل وقتيل المصباح يتآكل حتى انطفأ ، فسكن الطفل وكأنه أنس الظلام ، وهدأ أنينه وصمت . . . فرحت أمه وطمأنت أمها وأخاها قائلة . . . وغرقت هى فى بحر من الأوهام ، يقتلها اليأس ويحييها الرجاء ، شاخصة ببصرها إلى السماء ، تتمتم بالتوسل والدعاء . . . وبين هذه الظلمة الحالكة ، وفى ذلك السكون الشامل صعدت روح الطفل إلى ربها قبل أن يودع أمه بنظرة ، أو تودعه بقبلة ، صعدت إلى السماء وأمه شاخصة إلى السماء . صعدت إلى السماء تشكو إلى ربها ظلم الغنى للفقير ، وقسوته على من دهمهم الفقر ولم يشفق عليهم ، تشكو مايحيق بالفقراء من نكبات وما يسلط عليهم من عذاب . . . تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، تشكو ممن لم تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا فغرتهم الحياة حتى ملوا بها ، وافترت بهم الحياة حتى هامت بهم ، ومالوا بها ومالت بهم ، فولد الفقير بينهم غريباً وعاش مظلوماً طريداً ، ومات هينا ومهينا . . . جاع والتاع ، وأن وانفطر ، وشكا وزفر ، فلم تلن قلوبهم لجائع فيطعموه ، أو بئيس فيفرجوه ، أو ملهوف فينقذوه ، أو غريق فى ظلمات الظلم فينتشلوه . . . .

محمود الرضى
المدرس بمدرسة ملحقة المعلمين بأسيوط

(يتلى)